دور الأدب في تعزيز الولاء للوطن

د. سميرة الغالي الحاج و د. خالد على إدريس

ملخص الدراسة

إن محبةَ الأوطانِ فطرةٌ جبلَ اللهُ الناسَ عليها ، فالإنسانُ بفطرته يميلُ إلى أرضه ووطنه ، فعلى ترابه ترعرَعَ، ومن ثماره تغذَى وفي أكنافه عاشَ وتربىَ فهو مهدُ الذكريات ومرتعَ الصبا، وبعلو شأنهُ وجَميلُ ذكرِه يفخر الإنسانُ به ويتباهى .

وقد كرمَ الله سبحانه وتعالى الوطنَ اعزَ تكريم في قرآن يُتلى ، ورفعهُ منزلةً عظيمةً حين اقسم بالوطن في الآية الأولى من سورة البلد:(لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ). والآية الثالثة من سورة التين :(وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ) وما يؤكد أهمية الوطن في النفوس قوله تعالى في الآية السادسة والستين من سورة النساء:(وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا).

ويلعبُ الشعرُ دوراً رئيسًا في تعميق وتعزيز روح الانتماء للوطن ، ويتضحُ ذلك جلياً من خلال النصوص الشعرية التي وصلت إلينا من مختلف العصور ، فمن منّا لا يقشعرُ بدنه عندما يسمعُ النشيدَ الوطني لبلاده ،من منّا لا يذكرهُ النشيدَ بروح الانتماء والرغبة في الفداء من اجل الوطن خصوصاً إذا كان بعيداً عنه في مهجرٍ وغربة ، وقديماً قال شوقي :

وللأوطانِ في دم كل حرٍّ ... يدٌ سلفتْ ودينٌ مستحقُ

فعادةٌ ما يرتبطُ ذكر الوطنِ بالحنينِ إليه ، وإذا نظرنا إلى الشعر الجاهلي باعتباره اللبنةَ الأولى نجدُ معظمَ قصائدهُ تُفتتحُ بذكر الديار والحنين للأوطان ،وهذا آمرؤ القيس يشُدهُ الحنينُ للوطن فيقفُ ويستوقفَ ويبكي ويستبكي صَحَبَهُ :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزلِ ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل

يتضحُ هذا الحنين جلياً في الشعرِ الحديث وخصوصاً اذا كان الشاعرُ بعيداً عن وطنه ،فهذا مانع سعيد العتيبة يقول:

وطني عنك ما استطعتُ اغترابا ... وعلى البعد زدتُ منكَ اقترَابا

فيكَ عشتُ الصبا وكحلتْ عيني ... رمالٌ زرعتْ فيها الشَبَابا

فمنذ أن عرفَ الإنسان الوجود عرفه الوجود موصولا ببيئته ، ولقد عرف الإنسانُ وطنه الأول في محيطه الأسري ، حتى شبَّ واستوى عُودَهُ وتعلقَ وجدانهُ بحب وطنهُ .

هذه ورقةٌ بحثيةٌ تتبعُ ما كتبهُ شعراءُ الإمارات عن الوطن وعن الحنين إليه والدفاع عنه والتي تعززُ روحَ الشباب في الفداء والتضحية من اجل الوطن . وتتناولُ ما وردَ في القران والسنة من الآيات والأحاديث التي تؤكد وتعزز روحَ الانتماء للوطن كما تتناولُ نصوصاً شعريةٍ من مختلف الحقب الشعرية في ذات المجال .

مقدمة

الوطن هو أغلى ما يعتز به الإنسان ؛ لأنه مهد صباه، ومدرج خطاه ، ومرتع طفولته ومأوى كهولته ، ومنبع ذكرياته ونبراس حياته ، وموطن أباه وأجداده ، وملاذ أبنائه وأحفاده ، وأوطان الناس -كما يقال - هي قطع من أكبادهم ، وحب الوطن والاعتزاز والفخر والانتماء إليه ، يملك على الإنسان كل مشاعره وأحاسيسه ؛ لأن وطنه هو دنياه ، ورمز سعادته وهناه ، ومبلغ مناه ؛ لأنّ محبة الأوطان فطرة جبل الله الناس عليها ، فالإنسان بفطرته يميل إلى أرضه ووطنه ، والشوق إليه ليس وقفا على أرباب العواطف والشعراء ، وليس غريبا أن يحب الإنسان وطنه الذي نشا على أرضه، وشب على ثراه وترعرع بين جنباته ، كما أنه ليس غريبا أن يشعر الإنسان بالحنين الصادق لوطنه عندما يغادره إلى مكان آخر فما ذلك إلا دليل على قوة الارتباط وصدق الانتماء .

والوطن هو مهد للإنسان يحيا فى كنفه ويألف تربته ويحبُّ جواره ، ومن عاشَ مُحباً لوطنه أخلص فى بنائه ، واجتهد فى عمرانه ، فبناء الدول وقيام الحضارات أمانة كبرى وعهد يُوفى به من وهبه الله الصدق وحباهُ الإخلاص ، ولقد جُبِلَ الناسُ على حماية أوطانهم ، فمنهم من يجودُ بنفسه ، وهو أقصى غاية الجود ، ومنهم من يجود بأبنائه ، ومنهم من يجودُ بماله ، ومنهم من يجمع بين كل ذلك ويزيد (حماة الوطن ، ص١)

يكاد الوطن أن يحتل مكانة مرموقة وهامة في الأدب العربي ، والأدب هو مرآة الشعوب ومظهراً هاماً من مظاهر حضارتها وتقدمها ، كما أن الأدب يعكس الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للشعوب ولا تخلو أمّة من وجود أدب يعبر عنها ، وقد وردت كلمة الوطن كثيرا فى النصوص الشعرية والثرية التى وردت الينا ، فعلى سبيل المثال وردت فى القرآن الكريم آياتٌ كثيرة ذُكرت فيها كلمة الديار والمساكن ليعنى بها الأوطان منها قوله تعالى : (والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا) النحل (٨٠) ومن ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه الترمذي وبن ماجه قوله : (منْ باتَ آمناً في سربه معافى في بدنه كأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها) ويعنى بالسرب هنا الوطن .

وقد عبّر الأديب عن الوطن بكلمة (الديار أو (الدار) أو (البلد) أو (المنازل) ولعلّ أكثر من عبر عنها الشعراء الجاهليون فى مقدمات قصائدهم حين يقف الشاعر فيها على الأ طلال ويستوقف صديقيه ويبكى متذكرا محبوبته التى رحلت عن الديار ، ولهذا الرحيل (كرمز) مدلولاته عند العرب إذ أن حياتهم الرعوية تجعلهم ينتقلون من مكان الى آخر بحثاً عن الكلأ ، منها قول الشاعر الجاهلى :

وقوفاً بها صحبى علىّ مطيّهم
يقولونَ لا تهلك أسىً وتجمّلِ

ويقولُ الشاعرُ ذو الرمة :

قف العيس فى لأطلال ميّة وأسأل
رسوماً كأخلاق الرداء المسلسلِ

ويقول أبو الطيّب المتنبىّ

بُليتُ بلى الأطلال إن لم أقف بها
وقوفَ ذليل ضاعَ فى التُرب خاتمُه

والشاعر العربى ارتبط ذكره للديار بذكر حبه لها

قال بن الرومى :

بلدٌ صحبتُ بها الشبيبة والصبا
ولبستُ ثوبَ العيش وهو جديدُ
فإذا تمثّلَ فى الضمير رأيتُهُ
وعليه أغصانُ الشباب تميدُ

وقيل لإعرابي : أتشتاقُ إلى وطنك ؟ قال : كيفَ لا أشتاقُ إلى رملة كنتُ جنينَ ركامها ورضيع رغامها

وروى الفتح بنَ خاقان يقول :وردَ علىَّ اعرابى من البادية نجديٌّ فصيح ، فباتَ ليلةً عندي على سطح مُشرف على بستان فسمعَ صوتَ الدواليبِ (النواعير) فقال : ما أشبهَ هذا إلا بحنين الإبل وأنشد :

بكرتْ تحنُّ وما بها وجدي
وأحنُّ من شوق إلى نجدِ
فدموعُها تحيا الرياضُ بها
ودموعُ عيني أحرقتْ خدّي

ويقول بعض الحكماء (الحنينُ من رقة القلبِ ،ورقةُ القلبِ من الرعايةِ ، والرعايةُ من الرحمة، والرحمة من كرم الفطرة ، وكرم الفطرة من طهارة الرشد ، وطهارة الرشد من كرم المحتد وهو الوطن)

والعربى كان يحبُّ البقاء فى وطنه ويكرهُ مفارقته ، ومن ذلك قولهم (عُسرِكَ فى دارك أعزُّ لك من يُسرك فى غربتك)

ويقولُ آخر عن إحساس الغريبِ عن وطنه :

غريبُ الدارِ ليسَ لهُ صديقُ
جميعُ سؤاله أينَ الطريقُ
تعلّقَ بالسؤالِ بكلِّ شيءٍ
كما يتعلّقُ الرجلُ الغريقُ
فلا تجزعْ فكلُّ فتىً ستأتى
على حالاته سعةٌ وضيقُ

ويختلفُ الناسُ فى إعزاز أوطانهم والبذلِ لها ، كلّهم محبون ولكنهم فى هذا الحب يختلفون ، وأرضك التي درجت على ظهرها وتنسمت هواءها وطعمت غذاءها وشربت ماءها كانت منها أجزاؤك التي أنبنى منها جسمك وخواطرك التي إنعقد عليها فكرك ونوازعك التي استوى منها أملك وعواطفك التي جمعت فيها حميتك وأحاسيسك التي كونت لك عقلك فأنت من هذه الأرض بجسمك وفكرك وأملك وحميتك وعقلك (سميرة الغالي ـ ص١٥)

لأنَّ هواء الوطن غذاء وماءه شفاء وتربته دواء ، كيفَ لا ؟ وفى أرضه بيوت الله عزَّ وجلَّ وعلى ترابه يسجد